كيفية نقد الخط العربى

إن الجرأة التى كان يتمتع بها الفنان المسلم هى التى أوصلت الخط العربى إلى هذه المكانة السامية ، فكان الخط يتطور من مدرسة إلى مدرسة بتلك الحرية المسئولة التى أتاحت للمبدعين فى كل مرحلة من المراحل أن يضيفوا إليه بقدر ما يستطيعون من تحسينات فى سعيهم نحو الكمال .

لكن مـا أن وصل الخط بعـد هذه الرحلة الطويلة من الإبداع إلى النضوج فى المدرسة التركية ، تم قطف ثمرته دون أن يتم زرع شجرة أخرى !

وأصبح مطلوبًا من الجميع أن يتوقفوا عند المدرسة التركية ، ولايغادروها ، وهذا ماتم بدرجة كبيرة ، فمنذ ذلك التاريخ ارتد الخط مرة أخرى إلى مراحله الأولى ، وأعنى أن الفروق بين الخطوط أصبحت فروق

تجويد لافروق خصائص ، وتحول الخطاطون إلى نسخ مكررة من معلميهم .

إن «الأمْشُق[1]» التى نتعلم منها الخط الآن هى نفسها التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر ، وحتى الكتب التى جاءت بعد سلكت الطريق نفسه ، دون أن تحذف أو تضيف على الرغم من الحاجة الملحة إلى ذلك ، وأصبح الحصار محكمًا بقواعد الخط . أو هكذا صورها لنا الفقه المتداول لهذا الفن .

إن الإبداع لا يمكن أن يتوقف مع حركة الزمن ، إن الماء الراكد

(١) جمع مشق وهى الكراسة التى تحوى الصورة القياسية للحروف .

يفسد فما بالك بالفن ، فهو يتغذى بحركة المبدعين الأحرار ، ويحيا فى وجدان الناس متى ماكان ملبياً لحاجتهم الفنية .

إن الحديث عن نقد الخط العربى وسط هذه الأجواء الرافضة لكل جديد يعتبر ترفًا لا مكان له ، لذلك فإن أول خطوة لترسيخ مبدأ النقد هى أن تتحرك العقلية المبدعة بعيداً عن هذا الجمود الذى يحيط به ، وأن تتحرر من الخوف من تجريب عوالم إبداعية جديدة تستطيع فيها أن تتحول – بفهم ومسئولية – من مقياس النقطة إلى مقياس الجمال .

ولقد ساعد على هذا الجمود أن الخط كان يُدرس فى المساجد بنفس الطريقة التى كانت تدرس بها العلوم الدينية ، حيث إن المعلومات القادمة من الشيخ دائمًا تكون نهائية ويجب التسليم بها ، وهذا أمر مفروغ منه فى علوم القرآن ، لكن الأمر فى الخط العربى لم يسلم أيضًا من هذا الشمول ، وحظى معلم الخط بنفس احترام معلم القرآن ، واستمر هذا الاحترام حتى اليوم وهذا شئ جميل ، لكن هذا الاحترام جعل المعلمين فوق النقد فأصبحت وجهة نظر الأستاذ هى المهيمنة دون أن تكون

خاضعة لأى نقد فنى ليسكت الجميع عن أن يقولوا شيئًا ، فإذا تكلم أحدهم فهو يعلم أن أستاذه لن يرضى عنه وبالتالى فهو تلميذ غير وفى ، ولا يستحق أن تكشف له أسرار الخط ، وتحول الخط – فعلاً– إلى سر لا يخرجه الأستاذ إلاّ عندما يتأكد تمام التأكد من ولاء تلميذه له ، لدرجة أن تحضير الحبر كان سراً من الأسرار العظيمة .

وتحول النقد الفنى – بذلك – إلى همس دون أن يستفيد منه صاحب الإنتاج الفنى ، لأنه يتم شفاهة وفى عناية ، ولا يستطيع أن ينقل وجهة النظر المخالفة إليه أحد إيثاراً للسلامة . وبهذا الفعل الهامس لم يستطع من هو خارج قبيلة الخط أن يمارس النقد ، وبحكم التلمذة والاحترام والزمالة لم يعرف الخط العربى شيئًا اسمه النقد الفنى .

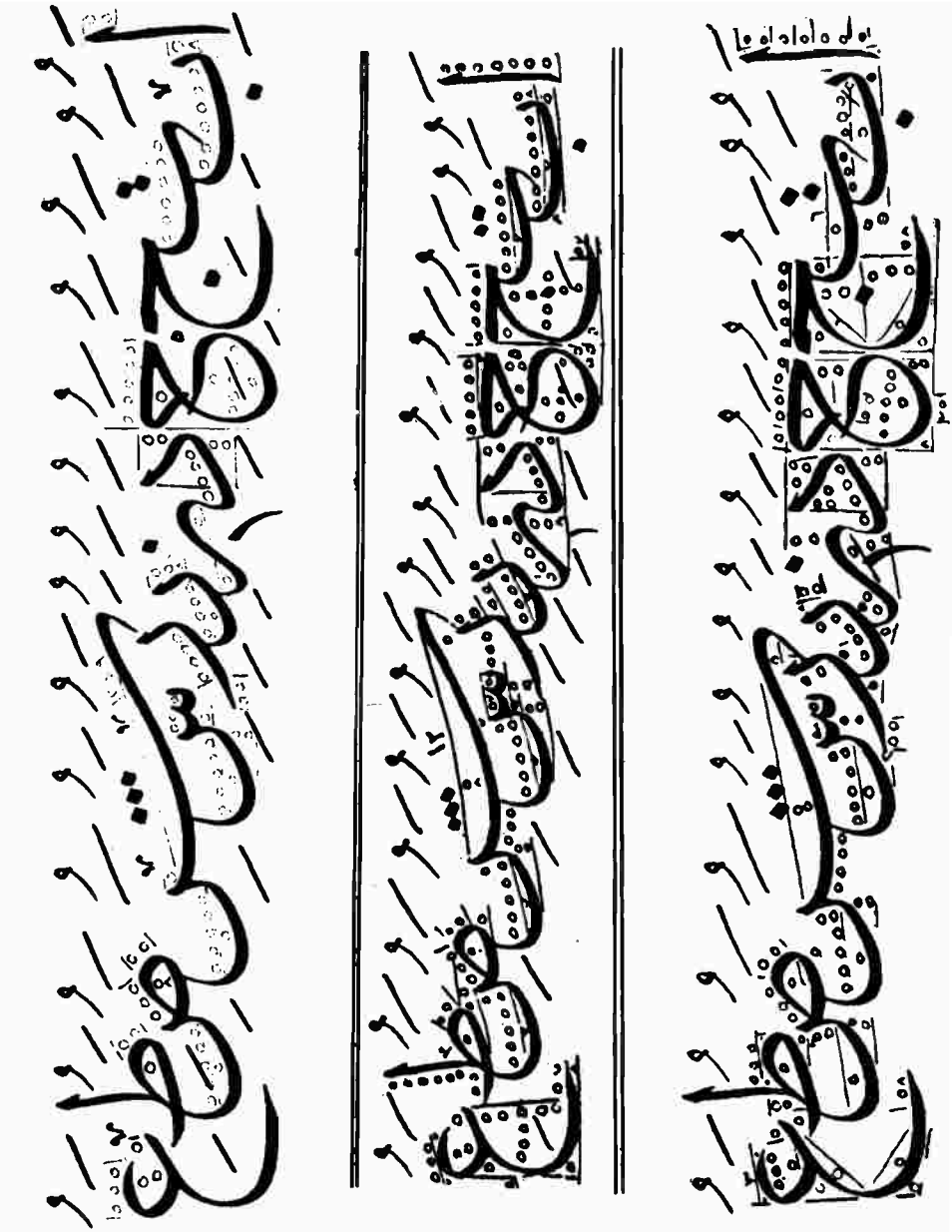

عبدالعزيز الرفاعى　　محمد مؤنس　　محمد شوقى

توقف الإبداع بعد أن تحول الخطاطون إلى نسخ مكررة من معلميهم ، دون أن يتجرأ أحدهم أن يُدخل أى إضافات حتى إذا كانت ضرورية ، فتأمل دقة التقليد!

فى السابق كان التنافس الشديد بين الخطاطين هو الذى يساهم فى رفع المستوى ، فبدلاً من أن يقول أحد الخطاطين إن هذا الخطاط قد أخطأ فى عمل ما ، فإنه يقوم بتقليد العمل وهو خالٍ من هذه الأخطاء ويترك للآخرين اكتشاف هذه الأخطاء ، وكانت هذه المقارنات تتم بين الخطاطين فقط دون أن يكتبها أحد فانحصر تذوق هذه الأعمال عليهم ، حتى تضخمت بمرور الزمان أعمال آية من الجمال دون أن تكشف مكنوناتها ليستطيع الجمهور العريض أن يتذوقها .

وخرج بذلك الخط العربى عن الحركة النقدية ، وترك الساحة خالية للفنون الأخرى ، وهى تمرح فى سعادة ! فانسحاب الخط العربى أراح هذه الفنون من معارك كان يمكن أن تنشأ مع الخط وهى تعلم علم اليقين أنها لن تكون فى صالحها على الإطلاق ، فالخط العربى هوية هذه الأمة .

فإذا كان غير مطلوب من كل الناس أن تمارس الفن – أى فن – إلاّ أن تذوق الفن – حتى يستمتع به الناس وتصلهم رسالته كاملة – يكون هو المطلوب ، وأحسب أن أول معرفة بالفن تكون بإدراك الإيقاع الذى يربط عناصره ، فلا يوجد شعر بلا تفعيلة ولغة شعرية ، ولا لغة بلا نحو وبلاغة ، ولا موسيقى بلا إيقاع ، بل لا توجد حياة بلا قلب ينبض بانتظام .

إن الإيقاع هو سنة الحياة . فما أن يدرك المرء إيقاع الفن حتى يكون قد امتلك أول أدوات النقد ومن ثم يستطيع أن يكوّن رأياً أوليًا عن ارتفاع قيمة العمل الفنى أو هبوطها .

إن الطلاب الذين يدرسون فى مدارس الخطوط تظهر عليهم أعراض التذوق مبكراً ، فهم يدركون أنواع الخط العربى ويعرفون الفروق بين الخط كفن والخط كإعلان ، ويبدأ إيقاع الخط العربى يتبلور فى

أذهانهم من زاوية العلاقة بين سُمك الحروف ومساحتها ، ثم درجة الميل المشتركة بين الحروف إلى توزيع الكتل والفراغات ، إن الطلاب يعرفون كل ذلك دون أن يكون لهم المقدرة فى التنفيذ ، وهذا يعنى أن تذوق الخط قابل للتدوال بين الناس إذا ماتم الاحتكاك اللازم .

إن فنانى الخط مطالبون أن يُخرجوا كل ماعندهم من نقد ، ونشرها حتى تتوسع دائرة المهتمين بالخط ، وإن يرفعوا عن أنفسهم الحرج الناتج عن النقد ، وأن يكتسب الحوار مع التلاميذ روحاً جديدة تؤمن بالفروق الفردية ، لأن العمل الإنسانى غير معصوم من الخطأ بأكثر من الإصرار عليه بمبررات غير مقنعة ..

ومما يجدر ملاحظته أن معظم فنانى الخط المتفوقين لم يصلوا لهذا المستوى الرفيع لولا الحرية الكبيرة فى الحوار التى تمت مع أساتذتهم . وأن إقناعهم تم بصورة طبيعية ، فانعكست هذه الروح «الديمقراطية» على تلاميذهم وتفوقوا أيضاً .

وهذا الحوار بين الأساتذة والتلاميذ فى نقد الأعمال الفنية هو مانتمنى أن نراه مكتوباً ومتداولاً بين العامة ، متزامناً مع معارض الخط والتى يجب أن تكثف ، وصولاً لميلاد حركة نقدية فعالة . تمهّد لعودة هذا الفن إلى الصدارة كما كان – حيث أن مكانه مايزال شاغراً – كما تعلمون – حتى الآن .